﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤١﴾ [التّوبة: 41]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين العتاب على التّثاقل، والاستنهاض للنّفرة بالأموال والأنفس في سبيل الله

الآيةُ الكريمة ناظرةٌ نازلةٌ إثْرَ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ مُعقِّبَةٌ عليها، فإنَّ ماجاء بعدَها من الآيات مُنبنٍ عليها ذِكْرًا، مُفرِّعٌ لها مَعْنًى، حيث بدأ المعنى في الآية الأولى بالتَّوبيخ على التَّثاقُلِ عنِ الخروجِ، ثمَّ أتبعه في الآية الثَّانية ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ﴾ بالوعيد والتَّهديد، ثم انتقل هنا إلى الأمر الصَّريح بضِدِّ ما تَوَعَّدَ عليه، و"لمّا توَعَّد الله تعالى مَنْ لا ينفِر مع الرَّسول ﷺ لِتَبوكَ، وضرب له من الأمثال ما فيه أعظَمُ مُزْدَجَر؛ أتبعه بهذا الأمر الجَزِم، فقال سُبحانه: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾"[1]، ذلك أنَّهُ "لمَّا بلغت هذه المواعظ من القلوب الواعية مَبْلَغًا؛ هيَّأها به للقبول؛ أقبل عليها سبحانه بالأمر"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خِفَافًا﴾: مِنْ "خفَّ، ويُطْلَقُ الخفيف بإزاء الثَّقيل، ويُقال ذلك باعتباراتٍ، مِنْها: المُضايفَة بالوزن وقياس شيئين أحدهما بالآخر، نحو قولِهم: درهمٌ خفيفٌ، ودرهمٌ ثقيل، وقولهُ تعالى: ﴿خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، وقوله سُبحانه: ﴿ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾. ومِنْها: المُضايفَة بالزَّمان، كقولهم: فرسٌ خفيفٌ، وفرسٌ ثقيلٌ إذا عُدَّ أحدهما أَكْثَرَ عَدْوًا، وأسرَعَ بلوغًا من الآخر في زمان واحدٍ، ويُقال:

(1) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 5/420.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/321.

خفيفٌ فيما يستخفُّه النَّاسُ، وثقيلٌ فيما يستَرْذِلُه النَّاسُ، فيكون الخفيف مدْحًا، والثَّقيل قَدْحًا، ويُقال: خفيفٌ فيمن يطيشُ، وثقيلٌ فيما فيه وَقارٌ أو رزانَةٌ أو رجحان"[1]، وقد تعني ﴿خِفَافًا﴾: رُكبانًا؛ لأنَّ ما يركبونه يُخفِّف عنهم[2]، و﴿خِفَافًا﴾ أيضًا، أي: شُبَّانًا، و﴿خِفَافًا﴾، أي: من المال[3]، والمراد من ﴿خِفَافًا﴾ في الآية، أي: واجدين ما تُحملونَ عليه، وأنتُم غيرُ أولي ضررٍ مُعيقٍ أو جهدٍ مُنْهِك حائلٍ، ﴿وَثِقَالًا﴾ عكسُهُ في وجدانِ ما يُحمَلُون عليه، إذا وجدوا ما يعْتقبونَه من دوابَّ ورواحِلَ، انفروا أصحَّاء؛ نُشَّاطًا وكسالى، فصار المراد بـ ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي: انفروا على كلِّ حالٍ، قادرين أو غير قادرين دون عجزٍ بدنيٍّ أو اعتلالِ جِسْمٍ، راغبين أو راغمين.

2) ﴿ثِقَالًا﴾: الثَّاء والقاف واللَّام أصل واحدٌ يتفرَّع منه كلماتٌ متقاربة، وهو ضدُّ الخفَّة، ولذلك سمِّي الجنُّ والإنس الثَّقَلين، لكثرة العَدَد، ولخفاء الجنِّ، فإنَّ ﴿ثَقُلَتْ﴾ [الأعراف: 187] معناها: خَفِيَتْ، بلغة قريش[4]، وأثقالُ الأرض: كنوزها، وأصله: دفائنُها، فالكنوزُ بعض الدَّفائن، إذْ أثقالُ الأرضِ: كنوزها وأمواتها.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾: أجسادكم، ويُقال: ارتحل القومُ بِثِقَلِهم، أي: بأمتعتهم[5]، والثِّقَلُ والخفَّةُ متقابلان، فكلُّ ما يترجَّحُ على ما يُوزنُ به، أو يُقدَّرُ به، يُقال: هو ثقيلٌ، وأصله في الأجسام، ثُمَّ تُحمَلُ عليه المعاني.

وقوله ﷻ: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، قيل: شُبَّانًا وشيوخًا، وقيل: فقراء وأغنياء، وقيل: غُرَباء ومُستوطنين، وقيل: نُشَّاطًا وكُسالى، وكل ذلك ممَّا يحتَمِلُهُ لفظُ الآية.

وقد فسَّر الدَّامغانيّ الثِّقال هنا قائلًا: "الثِّقال: الشُّيوخ، وأصحاب العيال، قوله تعالى في سورة التَّوبة: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ يعني بالثِّقال: الشُّيوخ"[6].

(1) الرَّاغب، المفردات: (خف)، بتصرُّفٍ قليلٍ.
(2) فوزي الهابط، معاجم ألفاظ القرآن الكريم: 1/362.
(3) الدَّامغانيّ، الوجوه والنّظائر: 1/321.
(4) ابن سلَّام، لغات القبائل في القرآن الكريم (بهامش الجلالَيْن): 1/163.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ثقل).
(6) الدَّامغانيّ، الوجوه والنَّظائر: 1/215.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

دعـوة المؤمنين خفافًا وثقالًا، لـلـتّـضـحـيـة بـالأمـوال والأنفس، توخّيًا لما هو خير

الَّذي عليه أكثرُ أهل العلم بالتَّفسير أنَّ هذه الآيات في غزوة تبوك، وقد كانت هذه الغزوة هي الرَّدع للرُّوم، لكيلا يضطهدوا المؤمنين في أرضهم، وأراد النَّبيُّ ﷺ أَنْ يكون العددُ كثيرًا، ولذا دُعِيَ الجميع: أَنِ انفروا في سبيل الله، وجاهدوا بالأموال والأنفس ما استطعتُم إلى الجهاد سبيلًا، لا فرق بين غنيٍّ حِمْلُه خفيفٌ، أو فقير مُثقَلٍ بالعيلة والأولاد، ولا فرقَ بين شابٍّ وشيخٍ، ولا فرق بين حال مَنْشَطٍ أو مَكرهٍ، وحال إقبال وحال إثقال واستكراه، انفروا جميعًا غيرَ متعلِّلين بأيَّة علَّةٍ، وابذلوا وُسْعَكُم بالنَّفس والمال، فالخير كلُّه في النَّفير[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ بلاغةِ تصدير الآيةِ، بالأمر الصَّريح:

استـنـهـاضُ الهِمَمِ، يُناسبه الـصَّـراحـةُ والوضوح

اصطفى النَّظمُ الكريمُ من صُوَر الأمر صورةَ الفعل الصَّريح، فهو "تجريدٌ للأمر بالنُّفور بعد التَّوبيخ على تركه، والإنكار على المُساهَلة فيه"[2]، وفي ذلك ترقٍّ من التَّوبيخ والتَّهديد إلى الاستنهاض الصَّريح بهذا الفعل الدَّالِّ على النُّهوض والحركة والنَّشاط.

واقتصار الآية هنا على البدء بالأمر الصَّريح استهلالًا دون مُقَدِّمات، ودون التَّمهيد له مجدَّدًا بندائهم بالإيمان، مناسبٌ غايةَ المناسبةِ لمقام الإنهاء والبلاغ، المتضمِّن في طيِّه النُّذُر والزَّواجر، المُعْرِض قَصْدًا عن ذكرهم بالإيمان، تحقيقًا لمفاد علم الله به من كلٍّ بحسبه، على وجه الحقيقةِ المستقرَّة في الضَّمائر والأغوار، وبما يشبه التَّغاضي الحكيم عن ذِكْرِه، طلبًا لأثره، وتنبيهًا على أنَّ حيثيَّة إثباته تعود على المتَّصِفِ به على وجه الكمال، بحيث يكون أثرُ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3312، وحجازي، التّفسير الواضح: 10/75.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/67.

ذلك في نفسه التَّحفيزَ والاستفزاز للانبعاث والخروج، فلم يُذكر ثانية، وباعتبار جَعْلِ المبادرة لامتثال الأمر، كأنَّها هي المِحدَّة في اعتبار صِدقهِ من عدمه، وليكون الخطابُ بذلك في أشدِّ الحالات تحفيزًا، ولا يخفى أيضًا ما في ذلك مِنَ الإشعار بالعجلة وضيق المقام عن التَّلبُّث والتَّريُّث، والإيذان بدنوِّ الرَّحيل في النَّفير الذي أظلَّتْهُم ساعتُه، وليبقى عَدَمُ ذِكْرِهم بالإيمان في هذا الأمر داعيًا إلى استحضارِه واستقرائه فيما سبقَ تنزُّلِه فيه، فيُلْجِئُهم ذلك إلى ضميمة هذا النَّصِّ مع ما قبله، فيكون درسًا أوَّلَ لهم مِن دروس الجهاد: أنَّ الأوامر الميدانيَّة تَراتُبِيَّةٌ؛ ينبني تاليها على بادئها، وأَنْ لا شيءَ منها يقبلُ الإغفالَ وإن تقادم ذِكْرُه، أو يناله الإهمال وإن تناهى أمرُه، وأنَّ العمل بها أوَّلًا ابتداء، غير مُغْنٍ عن إعمالها دَوْمًا وآخرًا وانتهاءً.

سِرُّ اختيارُ فِعْلِ الأمر:

إحاطةُ اللَّفظ بالبدايات والنِّهايات، والمُنطلقات والغايات، شهادةٌ على التّفرّد المعجِز

اختيرَ للمقام فعل الأمر ﴿ٱنفِرُواْ﴾، وهو دالٌّ على تجافٍ وتباعد، وللتَّجافي والتَّباعد اعتباران اخْتُصَّا بمصدرين على التَّقسيم بحسب ما يُرادُ من المعنى، فالفعلُ (نَفَر) وأَمْرُهُ الواردُ في الآية ﴿ٱنفِرُواْ﴾، إذا رُوعي فيه التَّجافي باعتبار البداية؛ قيل: (نَفَرَ نُفورًا)، فهو مُدْبِرٌ نازعٌ عن مكانه، وإذا لوحظ المنطلَقُ إليهِ والغاية بحسب ما يَنْزِعُ إليه، ويرنُو له؛ قيل: (نَفَرَ نَفيرًا)، فاستعمل القرآنُ أمرًا واحدًا؛ لِيَدُلَّ على حَفْزِهم أن يخفُّوا للتَّجافي عمَّا هم فيه، بغاية الكُره للمقام في أطايبه من ظلالٍ، ومساكن، وطيب ثمار، ونحو ذلكَ، وذلك ما لا يتحقَّق لأحدهم إلَّا باستحضار مقارنةٍ بين هذا المتاع وبين نعيم الآخرة، الَّذي لا يعجله إلَّا الظَّفرُ بالشِّهادة.

وانظر إلى أثر الفعل عليهم من جهة دلالتهِ على النَّفير، وهم يعلمونَ اشتطاطَ الوِجهة، وتنائي المقصد، ودون ذلك سَفَرٌ مُكِدٌّ

مُرهِق، لا سبيل إلى صدِّ الهواجس المخذِّلة عنه إلَّا أن يستشعرَ الواحدُ منهم - ممَّا نزل، وممَّا لم ينزل بعدُ - المعانيَ المحفِّزاتِ، المالِئاتِ الأنفسَ يقينًا.

وإذ قدَّمنا بعضًا من إعجاز اختيار فعل الأمر من جهة إيحائِه الحاثِّ على الانخلاع ممَّا هم فيه مِن عاجل المتاع انخلاعًا تامًّا عامًّا إلَّا ما لا بدَّ لهم مِن استصحابه مِن وسائل أوَّلًا، ثمَّ من جهة إيحائِه بالتشوُّق لبلوغ الغاية حيث تعلَّقت نفوسُهم بالنَّيل من العَدُوِّ وتكبيدِه مرارات الفَجْع واللَّوع في سبيل الله إعزازًا لدينه وإعلاءً لكلماته ونصرًا لله ورسوله، وإسلام أنفسهم لله في ميدان الشَّرف والكرامة تمنِّيًا للشَّهادة وتشهِّيًا لمنازلها ومراتبها، تصديقَ ما بايعوا عليه وعاشوا من أجله ثانيًا، فإنَّنا نقدِّم ضربًا ثالثًا من إعجاز هذا الفعل منْ حيثُ تمحُّضُه بكل معناه للدِّلالة على الغزو دون غيرِه من المعاني على الحقيقة النَّاصَّة المُساوية؛ إذْ هكذا هو في لغة هُذَيْل، وكنانة، فبهذا أخبر أبو عُبيد القاسم بن سلَّام وغيرُهُ[1]؛ ليبقى ما استُعمل فيه الفعلُ (نفر) ومادَّتُه - من وراء الدِّلالة على الغزو - ضربًا من المجاز فيه روعة التَّشبيه، وحسن الاستعارة، وبلاغةُ الإيجاز. فالفعل إذًا مناسبٌ من جهة أنَّ غيرَهُ لا يقوم مقامَهُ، ولا يؤدِّي مؤدَّاه؛ إذ هو مختصٌّ بالغزو حقيقة، وبما استَصْحَبَ حالهُ من المقامات التي يُطلب لها التَّجرُّدُ من حظوظ النَّفس، والإخلاصُ في الطَّلب، وإيثارُ المطلوب بالنَّفقة والبذل، والتَّضحية بكثيرٍ من الضَّروريات قدرَ الاستطاعة كالشِّبَع والنَّوم، فيستعملُ فيه تقريبًا له من أجواء الجهاد وروحانيَّته، كطلب العلم الشَّرعيِّ وجميع ما يحقِّق لأمَّة الإسلام الغِنى والكفاية، إقامةً لنصيح الدِّين وأداء واجب النُّصح والاحتياط للمسلمين، كما في آية: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: 122]، فهي إذًا روحُ الرُّجولة والشَّهامة والتَّضحية والفدائيَّة والبسالة وأخلاق الفرسان شجاعةً وإقدامًا، وتعفُّفًا عن المطامع، وترفُّعًا على الحطام، وتنزُّهًا عن المُغريات.

وملمحٌ آخر من إعجاز الفعل ما فيه من المصارحةِ والمفاتحةِ بالغاية والغرض، من غير

(1) ابن سلَّام، لغات القبائل في القرآن الكريم (بهامش الجلالين): 1/178، والسُّيوطيّ، الإتقان: 2/93، وابن حنُّون، اللُّغات في القرآن، ص: 29.

تكنية ولا تورية، وما يدلُّ الفعل عليه، ويشير إليه، لمن تلبَّس به ألَّا يبارحَ هيئتَهُ، وما دام قد تلبَّث؛ فلا عليه أن يتشبَّث؛ إذ في الجهاد الرِّزقُ الوفير والعِزُّ الكثير.

فلا حرج على النَّبِيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ولا جناح، جرَّاء الإفصاح؛ تنبيهًا للمُستَنْفَرين بالاستعداد الممكن، والتَّأهُّب المكين.

مغزى إسنادِ الفعل إلى واو الجميع:

استنفارُهم كافَّةً، ومن جهَّز غازيًا في سبيل الله؛ فقد غزا

كان من هَدْي الله وحكمته أن يقعَ الاستنفارُ بصيغة مُسنَدةٍ إلى الجميع؛ ليتحقَّق الإعلامُ بالقصد على سواء، فلا يكون الإعلامُ موجَّهًا لذي صفةٍ دون صفة، ولا لموصوف دون موصوف، وليكون الجميعُ مخاطَبًا مأمورًا، وليقع الإبهامُ مِن كُلٍّ بحسَبِه، وإنَّ الله ليُدخل بالسَّهم الواحد ثلاثةَ نفرٍ الجنَّة: صانعَه يحتسب في صنعته، ومُنَبِّلَه، والرَّاميَ به، وفي الحديث أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللهِ؛ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَهُ فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ؛ فَقَدْ غَزَا»[1].

وفي إغفالِ الاعتباراتِ الخاصَّة لكبرائهم مِن صَفْوة المهاجرين والأنصار وفرسانهم يُعْلَم بأنَّهم يكتسبون حيثيَّات تُقدَّر إيمانيًّا بقدر بلائهم في إجابة الدَّاعي، وبلائهم المتتابع في السَّفر وفي الجهاد.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاستعارة:

وجوبُ النُّهوضِ للجهاد في سبيل الله على كلِّ حال

في قوله تعالى: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ "حالان مِن ضمير المخاطَبين، أي: على أيِّ حال كان من يُسر وعسر"[2]، "والخِفَاف والثِّقالُ هنا مستعاران لما يشابههما من أحوال الجيش وعلائقه، فالخفَّة: تُستعار للإسراع إلى الحرب، وكانوا يتمادحون بذلك لدلالتها على الشَّجاعة والنَّجدة، فالثِّقل الذي يناسب هذا هو الثَّبات في القتال، كما في قول أبي الطيِّب:

(1) رواه البخاريُّ في صحيحه، برقم: (2843)، ومسلم في صحيحه، برقم: (1895)، واللفظ له.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/67.

ثِقَالٍ إذا لاقَوا، خِفَافٍ إذا دُعوا

وتُستعار الخفَّة لقلَّة العدد، والثِّقل لكثرة عدد الجيش، وتُستعار الخفَّة لقِلَّة الأزواد، أو قِلَّة السِّلاح، والثِّقَلُ لضِدِّ ذلك، وتُستعار الخفَّة لقلة العيال، والثِّقل لضدِّ ذلك، وتُستعار الخِفَّة للرُّكوب؛ لأنَّ الرَّاكبَ أخفُّ سيرًا، والثِّقل للمشي على الأرجُل، وكلّ هذه المعاني صالحةٌ للإرادة من الآية"[1]، وهذا من الإيجاز والبلاغة بمكان؛ إذ يَصْطَفِي النَّظمُ الكريمُ أقصرَ لفظ لأوسعِ عبارة.

ودلالةُ هذه المعاني المتنوِّعة المتعدِّدة الماثلة في أشخاص ذويها على المعنى: بأنَّ الله يريد أن تجتمع كلمةُ المستجيبين له مهما كانوا أضدادًا في التَّنوع والصِّفات أو متقابلين فيها؛ فإنَّ الخطر يُوَحِّدُهم مستهدفين له متآزرين لصدِّه وردِّه، وأن يكونوا صفًّا واحدًا، قد زال منه التَّفاوتُ بفضل ظهور خِلالِ المناصحة والصَّفاء والحبِّ والإيثار، والتَّعاضد والتَّساند لإعلاء كلمة الله، وإعزاز دينه، ودحض عدوِّه؛ إذ لا ينبغي لأحد منهم مهما بلغت درجةُ التَّباينِ بينه وبين أخيه، أَنْ يدعَ حظَّه ونصيبه من ذلك لغيره.

وهذا الاستنفارُ على هذا النَّحو البالغِ الدَّرجةَ القُصوى في التَّعبئة والحشد ممَّا لا يُسمح في مثله بالتَّخلُّف، وكلُّ ذلك فيه مِن أمارات النُّبوَّة ودلائلها ما فيه.

وأيضًا فإنَّ التَّعبئة العامَّة - بالاصطلاح العسكريِّ الحديث - يُراد منها استصحاب معنى الذَّود عن النِّساء والأطفال، وعن الحرمات الدِّينية والأرواح والأعراض والمُقدَّرات والأموال وعن استباحة البيضة وانتهاك الحُرْمة وسطوة العدوِّ إنْ تغلَّب، فيجاهد المؤمنون لئلَّا يقعَ بهم ذلك، وذلك يتطلَّبُ بذْلَ الغالي والرَّخيص، وإنفاق المضنون به المدَّخرِ، وذلك كنايةٌ عَن بذل كلِّ شيءٍ في سبيل الله.

دلالةُ عطفِ الأمرِ على الأمرِ:

العطفُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ من باب عطفِ الصَّريح على الضِّمْنِيِّ؛ إذِ الفعل ﴿ٱنفِرُواْ﴾ يتضمَّن الأمر بالجهاد، لكنَّ الفعل (جاهدوا) تصريح بالمطلوب، فكأنَّ النَّظم الكريم أمرهم مَرَّتين؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/207، 206.

الأولى: ضِمْنًا، والثَّانية: صراحةً، وهذا يُكسب المطلوبَ الشَّرعيَّ أهمِّيَّةً بالغة، ويُكسبه التَّأكيد على المطلوب، وهذا ملائم للمقام؛ لأنَّ الآياتِ في غزوة تبوك التي سُمِّيت ساعة العسرة.

التَّأكيدُ على طلبِ الخروجِ للجهاد في غزوة تبوكَ

ويجوزُ أن يكون قد أَوْعَبَهُم جميعًا بالبلاغ، كُلًّا بلهجته وبلُغَتِه، إذِ ﴿ٱنفِرُواْ﴾ تعني: اغزوا في لغة كِنانة وهُذيل، فذكرها ولم يقف عندها، وجاء بعدها بما هو من الجُهْدِ - بالضَّمِّ - على لغة الحجاز، وبفتح الجيم: على لغة غيرهم، ومعناها: الطَّاقة، فأمر بالجهاد، والتعليلان ماضيان ومتساوقان.

سرُّ الجمعِ بين الجهاد بالأموال، والجهاد بالأنفُس:

الجمع بين الجهاد بالأموال والجهاد بالأنفُس، في قوله تعالى: ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ "إيجابٌ للجهاد بهما إن أمكن، وبأحدهما عند إمكانهِ وإعْوازِ الآخر، حتَّى إنَّ مَن ساعدَه النَّفسُ والمالُ يجاهدُ بهما، ومَن ساعدَه المالُ دونَ النَّفس يُغْزِي مكانَه مَن حالُه على عكس حالِه"[1]، فيجهِّزه، ويحقِّق أُهْبَتَهُ، ويَخْلُفُه في أهله ليَغْزُوَ عنه.

الجهادُ مطلوبٌ على كلِّ حالٍ ممكنةٍ

سرُّ تقديمِ الأموال على الأنفُس:

في قوله تعالى: ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾، "قدَّمَ الأموالَ في الذِّكر؛ إذ هي أوَّل مَصرِفٍ وقتَ التَّجهيز، فرتَّب الأمرَ، كما هو في نفسه"[2]، و"لأنَّ النَّظر إليه من وجهيْن:

المالُ به قوامُ الأنفُس، وبه يحصُلُ التَّجهيز والتّحصين

أوَّلهما: بُعْدُ خُطورِه بالبال وعدم تَوارُدِه على القلب عند سماع الأمر بالجهاد، فلذلك أُحْضِر.والآخَرُ: قُوَّة تعلُّق النَّفس به وبذلُها الجِدَّ لِكَسْبِه.ومِنْ صور التَّعلُّقِ به: "محبَّة الإقامة في الحدائق؛ إيثارًا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف، 3/523. وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/67.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/225.

للتَّمتُّع بها وخوفًا من ضياعها، مع أنَّ بها قوام الأنفس، فصار النَّظر إليها هو الحاملَ على الشُّحِّ بالأنفُس"[1].

سِرُّ العود إلى ذِكْرِ جُملة ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

مَفاداتٌ بَليغةٌ، مِن وراء التَّذكير بالهدف الأسمى

أعاد ذِكْرَ جُمْلَةِ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هنا مع الجهاد، وكانت ذُكِرَتْ قبلُ مع الأمر بالنَّفير المُضَمَّن صريحَ التَّقريع على التَّثاقل عنه في قوله: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: 38]، ولا ريبَ أنَّ علاقة الجهاد بالنَّفير في سبيل الله علاقةُ تلازم ومصاحَبَة، فاقتضى أحدُ الأمريْن المتلازمين المتصاحبَين ما اقتضاه مُلازمُه؛ مِنَ التَّصريح فيه بما صُرِّح في نظيره، ممَّا يدلُّ على الإخلاص لله، ومشروعيَّة العمل المبذول لأجله، وضرورة الاحتساب فيه، وتجريد النِّيَّة وتجديدها لإعلاء كلمة الله، وحطِّ كلمة الكفر، وتعاهد ذلك من النَّفس. ثُمَّ إنَّ الأمر بالنَّفير كان مطلقًا في النَّصِّ متروكًا لمعهودهم من تحقيق مثله؛ أمَّا هنا فمُقَيَّدٌ بما يُعْظِم المؤونةَ، ويُحْضِر المشقَّة، ويزيد الكُلْفة؛ إذْ ذُكِر فيه أموالُهم وأنفسُهم وسائلَ للغاية المجيدة والعاقبة الحميدة، فلمَّا ذُكِرَت الجملةُ فيما سبيلُ تحقيقِه حاصلٌ بالمشاركة مع القصد؛ لَزِمَ ذِكْرُها فيما لا يتحقَّق على جهة الكمال إلَّا مع الإحفاء في الاستقصاء ولتقوية حضور الاحتساب في الجهد والنَّفقة وطاقة النَّفس الذِّهنيَّة والبدنيَّة واستثمار العلاقات الاجتماعيَّة والحسب والجاه في تحقيق هدف الجهاد مِن النَّصر وقذف الرُّعْبِ في قلب العدوِّ. ولِيَلْفِتَ نظرَهم لفتًا يستحقُّه المقامُ أن يتطلَّعوا إلى الله وحده برجاء أجْرِه تعالى ومثوبته في جميع ما يجرون من الحقِّ، وما يجري عليهم من مقدور يُقابَل بالصَّبر، وألَّا يدخلَ عليهم الرِّياء ولا السُّمعة، فلا يكون شيء من جهادهم حميَّة أو نخوةً أو رياء، أو ليُرى مكانه، أو ليتمدح به،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/322.

أو ليصيب ثأرًا له؛ لَحِقَهُ عِبْئُه في الجاهليَّة إلى غير ذلك. والأهمُّ أنَّ القتال مظنَّة القتل، والقتيلُ مُلاقٍ ربَّه، فَلْيَتملَّأ بهذا التَّذكير بأخلاق مُلاقي الله من الثَّبات والتَّضحية والقتال مُقبلًا غير مُدبرٍ، والحرصِ على الشَّهادة، والبلاءِ الحسن في قتاله، والصَّبر حين البأس، واستشفافِ روح التَّأسِّي بالنَّبيِّ ﷺ، وترقُّب النَّصْرِ مِنَ الله.

موقعُ قولِهِ: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، ممَّا قبلَهُ ودلالته:

التَّعليلُ الحسنُ للأمر الصَّعب، يُكسبه قبولًا

قولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يُشْبِهُ أن يكون تعليلًا لطلب الجهاد بالمال والنَّفس، ردًّا على ما يَجْري في بعض العقول أنَّ الجهاد يترتَّب عليه نقصٌ في الأموال والأنفس، ووظيفَةُ هذه الجملة تصحيحُ المفاهيم، والتَّذكير بآثار النَّصر المرتقب مِنَ العزَّة في الدِّين والتَّمكين في الأوطان للعبادة وتبليغ الرِّسالة ونشر العلم وكفِّ المطامع عن الاعتداء، وتجديد الوعد الإلهيِّ تلويحًا لهم بعظيم الثَّواب المُعَدِّ للمجاهدين، والأهمُّ مِن ذلك: ما فيها من رَدِّهم إلى الله يتحاكمون إليه، ويرجعون لبيانه.

سرُّ التَّعبيرِ باسم الإشارةِ الموضوع للبعيد:

منـزلـةُ الجهـادِ في سبيل الله، أشـرفُ المنـازل، وأسمق المراتب

المشارُ إليه باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ هو الجهادُ المستفاد، من قوله: ﴿وَجَٰهِدُواْ﴾، وقد أفادَ اسمُ الإشارةِ أمريْنِ:

أحدُهُما: تعيينُ المقصودِ بالإشارةِ بإحضاره في الذِّهن؛ ليتمثَّل جرَّاء مثوله، ولينظر فيه مقرونًا بحسن عاقبته، ومجيدِ عائدته، وكريم منزلته، فيذهب عنه ما بهم له من الكراهة، كما قال المولى سبحانه وبحمده: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 216].

والآخَرُ: ما أفادتْهُ اللَّامُ مِنْ معنى البُعْدِ المؤذِنِ ببُعْدِ منزلته في الشَّرف[1]، وفيه إعلامٌ بأنَّ المتَّصفين بوصفِ الجهادِ لهم حظوةٌ وقربٌ عِنْدَ اللهِ سُبحانه وحسنُ جوار في الآخرة.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/67.

وقَرْنُ اسمِ الإشارةِ بالحرفِ الدَّالِ على المخاطَبينَ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ يُرادُ به التَّخصيص، أي: خاصٌّ بكم، وقيمةُ ذلك أن يعلموا أنَّ التَّنويه بالجهاد إغراءٌ لهم به لفرط حاجتهم إليه، وتوقُّفِ عزَّتهم وكرامتهم في الدُّنيا عليه، وأنَّ الدَّرجاتِ العُلا من الجنَّة أُعدَّت لأصحابه، فلا يَقِفَنَّ بأحدهم هِمَّتُهُ عند حدود إسلامِهِ وإيمانه دونه، وفائدةٌ أخرى هي أعظم: أنَّهم لَمَّا كُفُّوا عن الحديث عن الجهاد تورُّعًا عن الرِّياء وقطعًا لمداخل الشَّيطان إليهم فيه؛ زكَّاه اللهُ لهم على الوجه المأمورِ به، لِيُغْنَوا بثناء الله عن ثنائهم، وليتبارَوا متنافسين في إيقاعِهِ على الوجه الذي يُحقِّق مرادَ الله، فيحصل لصاحبِهِ رضوانُهُ جلَّ وعزَّ.

سِرُّ تنكير المُسنَد ﴿خَيْرٌ﴾ والإخبار به:

الإبهامُ يفتح الآفاقَ، لتوقُّع الخير بطريق أفسح وأرحب

الغرضُ من التَّنكير الإبهامُ؛ "لقصد توقُّع خير الدُّنيا والآخرة من شُعَبٍ كثيرة أهمُّها الاطمئنانُ من أن يَغْزُوَهم الرُّوم"[1]، فبهذا تسكن أنفسُهم إلى مزاولة أعمالهم ومعالجةِ شؤونهم في التِّجارة والحرث؛ إذ المدينة بلدُ زراعةٍ وحرثٍ وحوائطَ وبساتينَ، ومنابع مياه من آبارٍ مشهورة، ولِيَأْمَنوا في عمارتهم مساجدَهم وأداءِ عباداتهم وتعلُّم دينهم ونشر دعوتهم، وكلُّ ذلك من ثمار خروجهم لملاقاة الرُّوم؛ بُغْية تأديبهم وَكَسْرِ شوكَتِهم وفَلِّ حَدِّهم، سواءٌ أَتحقَّق لقاءٌ، أم لم يتحقَّقْ كما هو واقع الحال.

وإنَّما صحَّ أن يُقال: إن الجهادَ خيرٌ من القعود عَنْهُ، معَ أنَّه لا خيرَ في القعودِ؛ لوجهين: "الأوَّل: أنَّ لفظَ (خير) يُستعملُ في شيئين؛ أحدهما: بمعنى: هذا خيرٌ من الآخر، والثَّاني: أنَّه خيرٌ في نفسه، كقوله تعالى ذاكرًا دعاءَ موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص: 24]، وعلى هذا سقط السُّؤال. والثَّاني: سلَّمنا أنَّ المرادَ كونُه خيرًا من غيره، إلَّا أنَّ التَّقدير: أنَّ ما يُستفاد من نعيم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/208.

الآخرة بالجهاد خيرٌ ممَّا يَستفيده القاعدُ عنه مِن الرَّاحة والتَّنعُّم بها، ولذلك قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤١﴾"[1]، بمعنى: أنَّ العِلْمَ مُفضٍ إلى إدراك أنَّ الجهادَ يحقِّق الأمْرين؛ فهو خير في نفسه بما يكسب من صفاتِ القوَّةِ والجلَدِ والشَّجاعة في مواجهة الأعداء، ونحو ذلك، ومِنْ جِهَة ما يعود به المنتصرُ مِنَ الأسلاب والغنائم والأجور الأخرويَّة، وهو خيرٌ منَ القعودِ؛ لِما فيه من الرُّقيِّ إلى سُدَّةِ العزِّ والسُّؤدد، وما يكون له من الهيبة بما كان له من العلوِّ.

مَغْزَى ذِكْر المتعلَّقِ ﴿لَّكُمْ﴾، مع كونه ليس قيدًا على الخيريَّة:

في الجملةِ تلويحٌ بحُبِّ الله لهم، وتولِّيه جميعَ أمورهم، بما فيها إرشادُهم

الجهاد عَلَمٌ بالغَلَبَةِ على المشروع منه، وهو خير كلُّه، فهو من دفع اللَّه النَّاس بعضَهم ببعض، المنصوص في آياتِه على منافعه وعظيم آثاره، وقد خَصَّتْ هذهِ الآيةُ المؤمنين المخاطَبين بالنُّبوَّة الخاتمة وبوحْيَيْها الخالدَيْن: القرآن الكريم، والسنَّة المشرَّفة، إرادةَ إعلامِهم أَنَّهمُ المَعْنِيُّونَ أصالةً، وسائر مَن وراءهم، فهو يَليهم؛ إذْ هُمُ الأعلون بإيمانهم، وللإفضاء إليهم بحُبِّ اللَّه لهم، وتشريعه الجهادَ - على ما فيه - لِرِفْعَةِ درجاتهم في الدُّنيا والآخرة، وليرُدَّهُم إلى طلب العلم بكلِّ ما يُتطَلَّعُ إلى العلمِ به منه سبحانه، فهو أعلم بهم من أنفسهم وأحكم لِما يُصْلِحُهم، ولذلك شرع الجهاد لِما تقدَّمَ ذِكْرُهُ مِن فائدته وعائدته عليهم في الدُّنيا والآخرة.

وفيه لفتُ نظرٍ إلى أنَّ العناية في تحقُّق الفائدة بتحصيل الثَّمرة هو بالنَّظر إلى المجموع لا إلى الجميع، فقد يكون منهم أفراد يُضارُّون من الجهاد بأنواع الأذى والجراحات ممَّا لا يجب أن يلتفتوا إليه، ولا أن يُضارُّوا بالتَّخلِّي عن الجهاد باعتباره.

وفيه استثمار غريزة حبِّ الخير للنَّفس المركوزة في الطِّباع

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 10/99.

بطريقة فاضلة تَتبرَّأ من المثالب، وتتنزَّهُ عن المعايب، وتخلو من المعاطب مُستَعِدَّةً مستقيمةً بالغة إلى المناقب خالصةً إلى المراغب.

وفيه التَّلويح لهم بغِنى الله عنهم؛ إذِ الخيريَّةُ كلُّها لهم، وقد قال سبحانَهُ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ [الفتح: 17]. وقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: 56]؛ ليبقوا على رَغَبٍ ورَهَبٍ، وليَتضَرَّعوا لربِّهم خوفًا وطمعًا في قَبول أعمالهم وحفظِ دينهم عليهم وتقواهم له.

سرُّ ختْمِ الآية بجملة شَرْطٍ محذوفِ الجواب:

خُتِمَتِ الآيةُ الكريمة بجملةِ شرطٍ محذوفِ الجواب، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وتقدير المعنى: إن كنتم تعلمون أنَّه خيرٌ؛ فجاهدوا بأموالكم وأنفُسِكم، وفي هذا الختم استنهاضٌ للنُّفوس نحوَ الخير، والتَّعريض بمن لا يُدْرِكُ أنَّ الخير هو في تلبية دعوة الجهاد في سبيل الله، وفيه تعريضٌ بغباوة القاعدين "وفي اختيار فِعْلِ العلم دون الإيمان مثلًا؛ للإشارة إلى أنَّ من هذا الخير ما يخفى، فيحتاج متطلَّبَ تعيين شُعَبِهِ إلى إعمال النَّظر والعلم"[1]، كما أنَّ فيه "إشارةً إلى أنَّ هذا الأمر وإن كان عامًّا؛ فإنَّما يَنتفع به ذَوو الأذهانِ الصَّافية والمعالم الوافِيَة، فإنَّ العلم - ولا يُعدَّ علمًا إلَّا النَّافع - يحثُّ على العمل وعلى إحسانه بإخلاص النِّيَّة، وتصحيح المقاصد، وتقوية العزم، وغير ذلك، وضدُّه يورثُ ضدَّه"[2].

العلمُ النَّافع يحثُّ على العمل، مع صدق النِّيَّةِ، وعلوّ الهمّة

تخريجُ (إن) الشَّرطيَّةِ مخرجَ (إذ) الظَّرفيَّة:

من جمال اللُّغة العربيَّة وأسباب استعلائها على التَّآكل واستعصائها على فشو اللَّحن قواعدُها الصَّارمة ومرجعيَّتها الدَّقيقة المحكمة إلى الاستقراء التَّامِّ للأساليب الفصيحة على الفطرةِ أو السَّليقة والبداهة، وأعلاها شأنًا القرآنُ العظيم.

من روائعِ التَّفنُّن الآخذ بمجامع القلوب، أنْ يُؤَدِّي الحرفُ مؤدَّى الاسم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/208.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/322.

وقد عُلِمَ بالاستقراء التَّامِّ، والاستقصاء العامِّ؛ أنَّ لكلِّ لفظٍ معنًى أصليًّا إذا جرى استعمالُه على القاعدة، ويخرج عن معناهُ الأصليِّ إلى معانٍ تبعيَّةٍ لعلاقة، إن توفَّر سببٌ من خروج، وظهرت قرينةٌ على الاتِّساع في الاستعمال.

ومن ذلك (إن) الشَّرطيَّةُ التي لا تُستعمل عندَ النَّحاة إلَّا فيما كان مشكوكًا في وجوده[1].

ولأنَّها جامعت (إذ) في دخولها على الماضي - والأصل أنَّها للاستقبال - وفي إفادتها التَّحقيقَ مغايَرةٌ للأصل، وفي اقتران جوابها عن تحقُّق شروطهِ بالفاء؛ استُعْمِلت (إن) بمعنى (إذ) عند الكوفيِّين قاطبةً، ووافقهم بعضُ نُحَاةِ البصرة، لا سيَّما أنَّ (إذ) تأتي للتَّعليل، وفي الشَّرط الَّذي في (إن) معنى التَّعْليل.

والمسألةُ طويلةُ الذُّيول، والَّذي يقتضيه السَّدادُ إعمالُ (إنْ) عملَ إذْ، وتخريجها عليها فيما خولِف فيه بعضُ شروط إعمالِ (إنْ)، ومِن ذلك ما نحن بصَدَدِهِ مِنَ الجملة الأخيرة في الآية، فبعد ما قدَّم اللهُ تعالى دليلَ جزاءِ الشَّرط المحذوف بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ ذكَر الشَّرْطَ وفِعْلَهُ، فإن قيل باقْتِصار الخطاب على الشَّاكِّين تغليبًا؛ فلم يكونوا الأغلبَ، ولا يكون الَّذي أخبر الله بخيريَّته خيرًا لهم في حالِ تلبُّسهم بشَكِّهم؛ لأنَّ الشَّكَّ فيما أخبر الله مُخْرِجٌ مِن المِلَّةِ.

لهذا تعيَّن القولُ بأنَّ (إنْ) الشَّرطيَّةَ جاءت بمعنى (إذ) الظرفيَّةِ في هذا المقام، أي: ما داموا قد حصَلَ لهم العلمُ الذي يقتضي مِنهم الاستجابةَ لكلِّ ما دعتهم إليه الآيَةُ.

ومن فوائد ذلك: أنَّ فيه إشراكَهم في استخلاص النَّتيجة، والتَّسليم بحتميَّة المخبَرِ بهِ من الخيريَّة.

وفيه المفارقة بين العِلْمَين؛ إذ الله سبحانه يَعْلَمُ ما كان وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وفي ضِمْنِ ذلك عِلْمُه بالمآلات والمصائر كُلِّها، على حين أنَّ عِلْمَهُم مُخْتَصٌّ بنتائج التَّجارب ومستخلَص ما جرَّتْهُ عليهم الحوادثُ، وما أثروه من مواقفها مِن حِكَمٍ وأمثال.

(1) المبرّد، المقتضب: 1/126. وابن يعيش، شرح المفصّل: 5/113. والزّركشيّ، البرهان: 6/220.

تَوْجيهُ المُتشابِهِ اللَّفْظِيِّ:

دقَّةُ البيانِ القرآنيِّ في التَّصرُّفِ بمواقعِ الألفاظِ بما يلائم سياقاتها

قال اللهُ تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤١﴾ [التّوبة: 41]، وقال سُبحانَهُ: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١﴾ [الصّفّ: 11]، وبين الآيتين الكريمتين ملامحُ اتِّفاقٍ ومعالمُ اختلافٍ، أمَّا الاتِّفاقُ؛ فقد خُتِمَتِ الآيتان بختامٍ واحدٍ هو قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

وأمَّا معالمُ اختلاف النَّظم بين الآيتين؛ ففي مَحَلَّين اثنين:

أوَّلهما: قُدِّم في آية التَّوبة ذكرُ ﴿بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾ على قوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾، وعكس ذلك في آية الصَّفِّ؛ فقدَّم ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على قوله: ﴿بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾.

والآخَرُ: أنَّ اللهَ تَعالى قال في آية التَّوبة: ﴿وَجَٰهِدُواْ﴾، على حين قال في آية الصَّفِّ: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ﴾ [الصّف: 11].

ووجهُ هذا التَّغايُرِ؛ أنَّ آية التَّوبة قد سُبِقَتْ بآياتٍ تناولتْ موضوعَها بدْءًا من قولِ اللهِ سبحانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [التّوبة: 38]، وفيها ذُكِرَ الإيمانُ صلةً للموصول الَّذي نودوا به، وقُدِّمَ ذِكْرُ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فانْبَنى ما هاهنا عليه، وكان ذِكْر ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التّوبة: 38] متعلِّقًا بمحذوفٍ صفةً للمفعول المطلق المبيِّن للنَّوع، وجاءت ﴿بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾ - هنا - بيانًا للنَّفير من حيث كان معناه الغزوَ، ثُمَّ أُعيد ذِكْرُ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ عَقيبَ ذِكْرِ الأموال والأنفس اللَّذَيْنِ صارا محوطين بين يديْهما تسديدًا وتصويبًا، وبإثرهما تأييدًا وتعقيبًا، وكان ذلك فيه حسنُ الختامِ، وهو الأليقُ هنا بالمقام.

أمَّا سورةُ الصَّفِّ؛ فإنَّهُ لَمَّا كان المقام مُفتتحًا بالتَّلطُّف، توصُّلًا باللِّين إلى الإعلام والإفهام، المعبَّر عنه بالدَّلالة، وهي من التَّوجيه والإرشاد، جاء بها مرتَّبة مقدِّمًا فيها ذِكْرَ ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أوَّلًا؛ لأنَّه من الإخلاص وتصحيح النِّيَّة، ثُمَّ ذُكِرَتِ الأموالُ والأنْفُس؛ لأنَّها المسالك العمليَّة والوسائل العضويَّة التي تؤدَّى بها الكيفيَّة، وهكذا ترتَّب العمل التَّعبُّديُّ على الإخلاص العقديِّ، ولا شكَّ أنَّ النَّظم على هذا أحكم، وأنَّ ترتيبَهُ على هذا النَّحْوِ ألزمُ، وهذا نَصُّ آيتي سورة الصَّفِّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الصّف: 10- 11].

فسمَّى جميعَ العمل الصَّالح تجارةً، والعمل الصَّالِحُ مِنْ جملَةِ أفرادِ الإيمانِ والتِّجارة تقتضي اللَّجأَ إلى الله بالإخلاص وصدق التَّوكُّل، فقدَّم ذِكْرَ سبيل الله؛ لأنَّه المصحِّح للعمل المربِّح له، وليس وراءَ إعجازِ القرآن إعجازٌ ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢﴾ [هود: 1 - 2]، وسبحان من هذا كلامه.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 17 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-14-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 17 : المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-14-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4716310 بتاريخ 2024/01/24م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»